الوصفُ في الرواية العربية الحديثة
رواية متاهة الأولياء لأدهم العبودي أنموذجا

د. صالح جديد
كلية الآداب واللغات
جامعة الطارف/الجزائر

الملخّص:
تقوم هذه الدراسة على معالجة الوصف في رواية (متاهة الأولياء للروائي أدهم العبودي) والكشف عن أبرز التقنيات السردية المحققة للوصف فيها، معتمدين في ذلك على أبرز المقولات النظرية والمقاربات النقدية،التي تطرقت للوصف في مجال الدرس السردي،من منظور النقد الحديث.كما نحاول من خلال دراستنا للوصف أن نظهر محطات التداخل بين الوصف والسرد في الرواية، غير متناسين ذكر الوظائف التي تنجم عن الوصف،باعتباره تقنية زمنية وتقنية مرتبطة بالحدث والمكان والشخصيات، ومن محطات دراستنا كذلك التطرق للعلاقة القائمة بين الوصف والسرد، وكيفية التفريق والفصل بينهما في العملية الروائية.
الكلمات المفاتيح: الوصف، التقنيات السردية، المقاربات النقدية، الدرس السردي، النقد الحديث.

Abstract:
This study is based on addressing the description within the novel (a maze saints) novelist (Adham elaboudi), the detection of the most prominent narrative techniques earned the description in the novel, relying on the most prominent arguments Critical Theory and approaches that touched on the description in the area of the lesson the narrative of modern criticism perspective.

As we try through our study of the description to show the overlap between description and narration in the novel plants, not forgetting male jobs that result from the description as time IT and IT-related event, place, characters, and our study of plants as well as the relationship between description and narrative and how to distinguish and separate them in the narrative process discussed .
Key words: Descriptions, narrative techniques, approaches the cash, the lesson narrative, modern criticism.

الوصف تقنية سردية وظاهرة أسلوبية:

إنه من باب التذكير والتقريب المعرفي وقبل الولوج في الحديث عن الوصف في مجال النقد الحديث وبخاصة في ميدان الدراسات السردية، لابد من التعريج على ما جاء في مفهومه في النقد والبلاغة القديمين، فلفظة الوصف في بابها اللغوي تعني الكشف والإظهار، فنقول: " وصفته وصفا وصفة، وله أوصاف وصفات حسنة، وتواصفوا بالكرم، وهو شيء موصوف

ومتواصف ومتصف..."(1) والوصف يعني " وصفك الشيء بحليته ونعته"(2) ، ويعرفه الأشموني بقوله:" ما صيغ من المصدر ليدل على متصف، وذلك اسم الفاعل، واسم المفعول، والصفة المشبهة، وأمثلة المبالغة، وأفعل التفضيل"(3) ، وقد عرفه ابن رشيق القيرواني بقوله: " والوصف جزء طبيعي من منطق الإنسان؛ لأن النفس محتاجة من أصل الفطرة إلى ما يكشف لها من الموجودات وما يكشف للموجدات منها، ولا يكون ذلك إلا بتمثل الحقيقة وتأديتها إلى التصور في طريق من طريق السمع والبصر والفؤاد"(4) ، وهو عند قدامة بن جعفر " الوصف إنما هو ذكر الشيء بما فيه من الأحوال والهيئات "(5) ، والوصف الجيد الناجح هو ذلكم الذي ينقل الموصوف نقلا فنيا يجعل القارئ أو السامع لا يفرق بين الحقيقي والفني منه " أحسن الوصف ما نعت به الشيء حتى يكاد يمثله عيانا للسامع "(6) ، وهذا الفعل يدل على حسن اختيار الألفاظ والدقة في رسم الصورة وتنسيق وترتيب الأجزاء،فالوصف الجيد ما استطاع ان يجلي لنا صورة الموصوف، والقادر على كشف أوصافه واستقصاء معانيه، وللرافعي في الوصف رأي نورده كما جاء عنده " وإن أحسن ما يكون الوصف الصادق إذا خرج من علم وصرفته روعة العجب؛ فإن العلم يعطي مادة الحقيقة، والعجب يكسبها صورة المبالغة الشعرية"(7) ، فالرافعي يضع شرطين اثنين لنجاح الوصف، أولهما الصدور عن علم، بمعنى ان يكون الواصف عالما بالموصوف وبشروط الوصف وتقنياته وآدابه، وثاني الشروط أن يكون فيه من العجائبية ما يوفر له صفة الفنية والإبداعية والمبالغة المحققة للشعرية التي هي مطلب كل عمل أدبي شعرا كان أم نثرا.

لقد ارتبط الوصف إبداعا ودراسة في الأدب العربي بالشعر منذ العصر الجاهلي وإلى العصر الحديث، وقليلة هي الدراسات التي تتبعت ودرست الوصف في النثر، مما جعل الكثير من الناس يعتقد أن الوصف لا يكون إلا في الشعر، ولعل مرد الأمر إلى غلبة وهيمنة الشعر على الثقافة العربية الإبداعية أولا وعلى جهد الباحثين والدارسين ثانيا، حتى أن نقاد الشعر والشعراء أنفسهم جعلوا الوصف من أغراض وأضرب الشعر مثله مثل المدح والغزل والهجاء...الخ " فأغراض الشعراء وما هم عليه أكثر حوما وأشد روما المديح والهجاء، والنسيب والمراثي، والوصف والتشبيه"(8) ، وكذلك نجد هذا النص الذي يؤكد العلاقة والتداخل" نظر الأقدمون في الوصف فوجدوه يستخدم البيان كالتشبيه والاستعارة والكناية، ففرقوا بين الوصف والأدوات الفنية التي يستخدمها الشاعر"(9) ، وكذلك نجد الوصف في علاقته بالتشبيه في هذا القول: "وهو –الوصف– مناسب للتشبيه مشتمل عليه وليس به، لأن كثيرا مما يأتي في أضعافه، والفرق بين الوصف والتشبيه أن هذا إخبار عن حقيقة الشيء وأن ذلك مجاز وتمثيل"(10) ، ولم

ينفلت الأمر من قبضة الهيمنة الشعرية إلا مع الدراسات الحداثية التي يممت بالبحث جهة النثر وبخاصة لما بدأت الرواية تنتشر وتحتل صدارة المشهد الإبداعي في العالم العربي، وازداد الاهتمام بدراسة الوصف في مجالات الدراسات السردية المهتمة ببنية النصوص الأدبية، وكذلك في مجال الدراسات التداولية وأفعال الكلام، وبخاصة في اللسانيات الوصفية، ويهتم به– الوصف – كنوع من الخطاب القائم بذاته، وذلك باعتبار الوصف فعلا كلاميا قابلا للدراسة والتحليل.وقد نقل لنا النقاد العرب المحدثين وعلى رأسهم الدكتور عبد الملك مرتاض تعريفات ومفاهيم الغرب للوصف، وذلك في كتابه في نظرية الرواية، وقد استقينا منه هذه التعريفات للوصف والتي منها: " لقد يعني فعل (وصف Décrire) في بعض المعاجم الفرنسية: استحضار شخص ما، أو شيء ما، كتابيا أو شفويا. والوصف يضاد التعريف؛ فهذه يكون للمفاهيم والأفكار، وذاك يكون للأحياء والأشياء المحسوسة"(11)، كما يقدم لنا تعريفا آخر للوصف مقترنا باللسانيات والتي تطلقه " على المثول البنوي للجمل، للمرفيمات(Morphèmes) التي تشكل هذه الجمل، والفونيمات(Phonèmes) التي تشكل المرفيمات وقواعد التآلف لهذه المرفيمات"(12) ، ومن هذه المفاهيم والتوجهات البحثية الجديدة في الوصف انطلقت الدراسات الحديثة للوصف متجاوزة بذلك الدراسات الرابطة له بالأسلوب والبلاغة عموما في النقد القديم " ولقد نعلم أن الوصف في البلاغة التقليدية كان يوضع في مستوى واحد مع بقية الصور الأسلوبية عبر ديباجة الكلام، لقد كان الوصف في الماضي يمتد مع الكلام، ويسعى إلى تفصيله، فيبدو كأنه توقف للاستجمام، وتجديد للنفس في العمل السردي خصوصا"(13) ، ومن المفاهيم الحديثة للوصف نقرأ " الوصف Description هو تمثيل الأشياء أو الحالات أو المواقف أو الأحداث في وجودها ووظيفتها، مكانيا لا زمانيا. قد يحدد الراوي الموصوف في بداية الوصف ليسهل على القارئ الفهم والمتابعة، أو يؤخر تحديده إلى نهاية الوصف لخلق الانتظار والتشويق"(14) ، وفي المعاجم الأجنبية ومنها الفرنسية نجد الوصف يعرف على أنه" فعل ذكر طبائع (شيء ما، شخص ما، وصف شفوي، مكتوب، منح) وصف دقيق آمن مضبوط، أما الوصف في العمل الأدبي مقطع ينقل الواقع الملموس، تداول الأوصاف والسرود، وصف حي، تشكيلي، جامد عادي"(15) ، وينقل لنا الباحث (الصادق قسومة) تعريفا آخر للوصف بأنه " الخطاب الذي بواسطته يتم الوصف أو التصوير "(16) ونحن بدورنا سنقوم في هذا البحث على دراسة الوصف من منطلقات النقد الحديث، غير مهملين ما جاء في القديم من فؤاد معرفية وحقائق علمية تسهل لنا طريق البحث وتجلي لنا أسراره وتكشف خفاياه.

لا يمكن أن يدرس الوصف بعيدا أو في معزل عن الموصوف، فالعلاقة بينهما علاقة سببية تربط وتفسر السبب بمسببه، كما لا يمكن أن ينفصل السرد عن الوصف، والذي يعد ركنا ركينا في تشكله وهدفا رئيسا لكل مبدع، فتلكم العلاقة الوطيدة يصعب فك رباطها أو الاستغناء عنها" إن كل الأجناس السردية(Des genres narratifs) كالملحمة، والحكاية، والقصة، والرواية...لا يمكن لأي منها الاستغناء عن الوصف. بل إنك لتجد هذا الوصف يتبوأ فيها المنزلة الكريمة"(17) ، ولما كانت العلاقة كذلك فإنه لابد من تبيين أهم وظائف الوصف داخل العمل السردي كما تحدث عنها أهل الاختصاص من باحثين ودارسين في العالمين العربي والغربي، ولكن قبل كل هذا لابد من الإشارة إلى نقاط الفصل بينهما وأهمها نقطة المدى الزمني، فالمسار الزمني عند جيرار جينيت يولد التعليق، بينما الاستطراد قد يحدث الوصف " إن الوصف يتطلع إلى الأحياء والأشياء فيصفها في تزامنها وتعاقبها معا؛ وهو حين ينصرف إلى الأحداث على أساس أنها مشاهد، سيعلق مسار الزمن وسيفضي تعليقه حينئذ إلى تمطيط الحكاية وتمييعها عبر الحيز، إن هذين الصنفين من الخطاب يستطيعان إذن أن يبدوا على أنهما معبرين عن موقفين نقيضين إزاء عالم الوجود، إذ نجد أحدهما أكثر حيوية(السرد)، وأحدهما الآخر أكثر تأملية(الوصف)"(18) . ومن النصوص التي تبين الحدود الفاصلة بين الوصف والسرد نجد قول جيرار جينيت " السرد والوصف عمليتان متماثلتان، لكن موضوعهما مختلف؛ فالسرد يعيد التتابع الزمني للحوادث، بينما الوصف يمثل موضوعات متزامنة ومتجاورة في المكان، وربما انصرف الوصف إلى الشخصية وأبعادها الظاهرة ومشاعرها الباطنة فضلا عن المكان ومفرداته"(19).

وبالعودة للحديث عن وظيفة الوصف لابد من بحثها في بعديها الزمني واللغوي؛ ذلك لأن الوصف " تقنية زمانية يصعب أن تخلو منها رواية ما "(20) ، ففي البعد الزمني يقوم الوصف بوظيفة إبطاء السرد أو تعطيله كليا، فالزمن في هذه الحالة يتباطأ أو يقف ويكون في درجة الصفر، وهنا يحاول المبدع فسح المجال أمام تدفق المعلومات التي تبني خطاب النص، ولما ننظر للوصف كتقنية زمنية فإنه يؤدي وظيفة فنية تتمثل في تقليص زمن القص وتمديد زمن الخطاب " إن الوصف كتقنية زمنية يمكن اعتباره ملفوظا روائيا مهمته تقليص زمن القص مقابل تمديد زمن الخطاب عبر المكان؛ أي عبر النص"(21) ، وفي الوصف المرتبط بالزمن نجد نوعين منه: وصف خارج عن زمن النص؛ وهو وصف يلجأ إليه المبدع ليلتقط أنفاسه الإبداعية وليكسر روتين الحكي منتقلا بالقارئ خارج حدود أحداث النص الأصلي، والنوع الثاني هو الوصف المرتبط بلحظة سردية استوقفت المبدع ثم سرعان ما يعود بعدها للنص الأصلي،

وغالبا ما يكون هذا النوع الوصفي على لسان شخصية من شخصيات النص، أما البعد اللغوي فيمنح للوصف الوظائف التالية:

- وظيفة زخرفية تزيينية وهي وظيفة موروثة عن البلاغة القديمة، والتي ترى في الوصف مجرد صور أسلوبية تحقق الدور الجمالي الفني للنص والاستراحة السردية.
- وظيفة رمزية تفسيرية وهي التي تشترط أن يكون الوصف عنصرا أساسا في العرض وأن يخدم بصورة مباشرة المقطع النصي الموصوف.

تقنية الوصف في رواية متاهة الأولياء:

لدراسة تقنية الوصف في رواية متاهة الأولياء لابد لنا من القيام بإجراء عملي أولا يتمثل في تحديد أهم المقاطع الروائية التي اشتملت على الوصف، ثم بقوم بعد ذلك بتحليلها ودراساتها مبرزين الوصف وأنواعه وتقنيات حضوره داخل الرواية. إن ما يميز رواية(متاهة الأولياء لأدهم العبودي) أنها بنيت على الوصف بدرجة كبيرة جدا، حتى أنه يمكننا أن نصفها بأنها رواية وصفية، فالحوار وتبادل الأدوار بين الشخصيات قليل ونادر، كما أن صوت السارد هو المهيمن والموجه لخط سير أحداث الرواية، فلا صوت يعلو على صوته، فمن الناحية السردية نجد أنفسنا أمام راو عليم متحكم في أحداث الرواية، ونظرا لهذا الحضور البارز والواضح للسارد العليم، ولغلبة الوصف على الرواية تبدو لنا المقاطع السردية هي الأكثر ظهورا على صفحات الرواية، ومن تلك المقاطع نقرأ هذا النص " أرضنا البكر تحرسها قامات من نخيل دجج بالسعف والصلابة، تنفرج في منتصفه عن مجرى من الماء قد يشبه الترعة، غير أن مياهه واهنة السير، وعمقه لا يكاد يبلغ صدورنا ونحن نخلع جلابيبنا ونطويها بين أيدينا، نرفعها لأعلى حتى لا يمسسها ماء المجرى، الذي يتسلل إلى ما تحت سراويلنا فنشعر بدغدغة مستحبة، ونعبر بعيدا عن أعين الأهل لناحية الإسفلت"(22) ، هكذا يبدأ السارد في سرد أحداث الرواية مفتتحا بمقطع سردي وصفي يمتد طول الصفحة فلا صوت يحضر داخل المقطع إلا صوت السارد الذي يسلب القارئ حرية تلقي النص بل يجعله مستسلما متقبلا لما يرويه عليه، وهذا النوع من الوصف يندرج في البعد الزمني حيث يقوم الوصف بوظيفة إبطاء السرد أو تعطيله كليا؛ فالزمن في هذه المقطع السردي يتباطأ أو يقف ويكاد يكون في الدرجة صفر للحكي، وهي درجة يموت فيها الزمن وينتعش الوصف الإخباري محققا أسلوبا خبريا بقانون البلاغة التقليدية القائمة على الزخرفة اللفظية والجمالية الفنية المستندة إلى أساليب البيان والبديع، والوصف بتلك الطريقة فسح المجال للخطاب ليتمدد ويتسع، وهذا ما نلمسه في المقطع السردي الوصفي التالي: " كان

الإسفلت من ناحية طريق شرقي، صحراوي للسيارات، طريق سريع، يحزم خصر الشارع الممتد حتى بندر الأقصر، وفي الناحية الأخرى تقع البيوت الطينية المختبئة وراء جنود النخيل، بيوت تتشابه ولون الطين المخلل بالقش، تتشابه وبناؤها المتواضع، فالبيت يتوارى داخل حقل غالبا ما يلقح ببذور ذرة، تتمطى وتفرش المدى المحيط بالعيدان الخضراء، ونوافذ من جهاته الأربع تطل على بقية البيوت، لا تنفتح إلا على النخيل الذي يطوقها"(23) ، هذا المقطع السردي الوصفي اشتمل على تقنية زمنية تقوم على الوصف جاعلة منه ملفوظا روائيا يتمدد ويتسع على طول النص، يتسع مكانيا ويتقلص زمانيا، يتمدد زمن الخطاب الروائي ويتقلص زمن القص. إن تقنية الزمن في العملية الوصفية لهذا المقطع السردي تندرج ضمن النوع الثاني الذي هو الوصف المرتبط بلحظة سردية استوقفت المبدع ثم سرعان ما يعود بعدها للنص الأصلي، النص الذي سوف يقوم من خلاله عرض أحداث الرواية بحسب شخصياتها الرئيسة والتي تم توزيعها على الرواية توزيعا مرتبطا ومنظما مما يجعل متلقي الرواية يقف أمام خارطة روائية تنطلق به من البداية موصلة إياه للنهاية في خط سير سردي ووصفي أفقي مستقيم ومستمر. ومن التقنيات الزمنية المحققة للوصف القائم على الاتكاء على شخصية من شخصيات الرواية وإسناد عملية القص لها نقرأ هذا المقطع السردي: " يحكي لنا حينما تعب أبوه ذات يوم وأوكل له دفنة من الدفنات، عن الفرحة التي استولت عليه وهو يجهز موضع الدفن ويهيئه إلى حين يفرغ الناس من صلاة الجنازة وحتى يأتون سيرا على الأقدام إلى الجبانة والجثمان فوق أكتافهم، وهو يرش الماء ويسوي التراب بمدخل الفسقية، يهذبه ويدور التجويف إلى القبر بتناسق كما علمه أبوه، وقتئذ جسارة العهد الأول بالدفن وإحساس بالنضج تملكاه، فوقف يلتقط الجثمان من الأيادي، ويدخله براحة إلى الكوة المعتمة، ثم فجأة كأنه لدغته عقرب انتفض وهرول في هلع بعيدا وراح يصيح بأعلى صوته:

–عفريت

توقف، ضحك ضحكا بدا كشهقات متقطعة، جال ببصره فينا وفي المدى المحيط، ثم أردف في شيء من أسى:

–قلة الخبرة خلتني أنسى ان في القبر بقايا عظام قديمة، كان لابد أن اكشطها قبل أن أدفن الميت، فلما تمددت على ظهري ووقفت، عظمة ضربتني في وجهي، جريت من خوفي"(24) ، فهذا المقطع الوصفي جاء على لسان شخصية من شخصيات الرواية ممثلة في(حمدي) ابن حفار القبور.

ومن أشكال الوصف داخل الرواية وجدنا النوع الأول بحسب التفرع عن البعد الزمني، وهو وصف خارج عن زمن النص؛ وصف يلجأ إليه المبدع ليلتقط أنفاسه الإبداعية وليكسر روتين الحكي منتقلا بالقارئ خارج حدود أحداث النص الأصلي، ومن أمثلة ذلك نقتطع من الرواية المقطع الوصفي التالي: " قريتنا تحمل حياتنا في أحشائها، حياة لا لهو فيها سوى العوم في مجرى المياه المحتشد بفضلات القرية وجيف البهائم النافقة، ولا ترف غير قعدتنا عند الشيخ (إبراهيم) في البر الثاني، أو مع آبائنا على مقهى المعلم(سوسو) القابع خلف ضفة المجرى، الذي تلتف حوله قامات النخيل تلك التي تحرس قريتنا بينها رص (دكتين) لجلوس عمدة القرية وأكابرها، فرش داخلها حصر من الخوص، ووسدها بمساند من القش زينت بقماش (دبلان) فاقع اللون، وعلى الأرض الطينية يفترش بقية الرجال(كليمات) متسخة من كثرة الاستخدام، يتربعون فوقها، تتوسطهم(طبالي) خشب يتبادلون عليها لعب الضمنة والطاولة"(25) ، لجأ السارد في هذا المقطع وغيره كثير داخل الرواية إلى الوصف خارج زمن النص، واستعمل في ذلك تقنية الفاصل بين مقاطع الرواية المشكلة لداخل النص والمقاطع المشكلة لما هو خارج النص، ونعني بذلك الفاصل المعنون بلفظة (صوت) حيث نجده يرد في فصول الرواية كلما أراد السارد الانتقال بنا إلى حدث روائي داخلي فيمهد له بهذا الفاصل مقدما لنا وصفا دقيقا ومفصلا للمكان والشخصيات والوقائع التي سيسردها تباعا في الرواية.

ومن الصيغ التي اعتمدها السارد وجدنا كذلك اللجوء إلى النصوص الدينية وبخاصة المستقاة من الكتاب المقدس، ليخرج بنا إلى خارج النص بتوظيف تقنية التناص، الذي يحيلنا إلى نصوص أخرى ليست من إبداع الراوي ولكنها منتمية للمتن الروائي بفعل الترابط الزمني أو المكاني أو الشخصي أو الحدثي، ومن تلك النصوص نقرأ " ويكون في ذلك اليوم أنه لا يكون نور، الدراري تنقبض، ويكون يوم واحد معروف للرب، لا نهار ولا ليل، بل يحدث أنه في وقت المساء يكون نور"(26) ، إن مثل هذه النصوص يلجأ إليها السارد في عملية القص ليحين ويحيد الزمن ويجعل الخطاب يتمدد ويتسع معطيا للعملية السردية التواصلية والاستمرارية من ناحية، وتقديم المعلومات والأخبار للمتلقي مما يجعله مكتسبا للرؤية مع التي هي من أهم زوايا النظر التي يقوم عليها السرد الحديث.

أما الوصف القائم على البعد اللغوي والمستند أساسا على الزخرفة اللفظية والجمالية الفنية المتحققة من وراء المحسنات البديعية ومن الصور البيانية، فإن رواية (متاهة الأولياء) قدمت لنا بعض المقاطع الوصفية التي أثبت من خلالها الروائي ارتباطه بالبلاغة العربية القديمة وأظهر التزامه بتقاليد الكتابة الأدبية العربية التقليدية، حتى وإن كانت روايته تنحو نحو التحديث

والتجريب، فوجدنا التشبيه، والاستعارة والكناية، كما وجدنا البديع، والطباق، والجناس، والتكرار بكل صيغه، وإن كانت تلك المظاهر الأسلوبية ليست بالقوة المتمثلة في الأدب القديم، لكنها تحضر بمستويات تجعلها تحقق وظائفها الفنية والتواصلية. ورد في الرواية هذا النص الحامل لهذا النوع الوصفي " تخدرت كل أطرافي(فلان) واقفا كان هناك، ساكنا سكون كل خلجاتي، ثم لما– بعد وقت ليس بقليل– قرر أن يغادر، لم ثوبه المرحرح على بساط التراب، وانتقل كطائر ضخم أسود إلى عنان السماء، شق بهيبته ورهبته صدر الأفق، وبدا لي ككتلة من غمام مظلم، حجب روعة نور الشمس، وهو ينبسط..ينبسط.. مكفهر وجهه، ويحلق كبالون منتفخ بشكل لم أره ولن يحدث لي أن أراه إلا في لحظة قررتها أنت يا عليم"(27) ، إن المقاطع السردية الوصفية في هذا النوع غلبت عليها التشبيهات والكنايات بالدرجة الأولى، وحتى التشبيهات الموظفة في الرواية كانت عادية وبسيطة ترتكز أساسا على التشبيه التمثيلي التام الأركان(المشبه، المشبه به، أداة الشبه) وغالبا ما كانت الأداة هي حرف (الكاف)،و(مثل) ونعثر عليه خصوصا في حالات وصف القرية، أو وصف حالة نفسية أو اجتماعية أو اقتصادية لشخصية من شخصيات الرواية " أدور في غرفتي وأدور مثل عصفور تحوطه من سائر الجهات نار، من حولي نار وفي داخلي نار، أحس كأن نهاية كل البشر قد تمثلت أمامي"(28) ، لا غرابة إذن أن نجد تعلق الوصف بالتشبيه فالوصف مناسب للتشبيه مشتمل عليه وليس به"(29) ، إن الوصف وهو يستدعي التشبيه إنما يستدعيه ليكون مكونا جزئيا للنص ولكن لا يمكن الاستغناء عنه، فالوصف يبني ذاته من خلال استحضار التشبيه والذي يمارس في أكثر من مقطع سردي وصفي عملية تفسيرية وتوضيحية تقرب الموصوف من الواصف، وتقرب العلاقة بينهما من المتلقي فتجده يقرأ النص بتلك التشبيهات قراءة جمالية سلسة يفكك من خلالها الرموز والانزياحات اللغوية التي تحضر مع الكنايات والاستعارات والتناصات، ليكون بذلك الوصف يؤدي وظيفة إخبارية تنقلنا إلى عالم الأمكنة والشخصيات نقلا دقيقا، وأنت تقرأ تلك الأوصاف تعتقد في واقعيتها، هذا الأمر مرده استناد الوصف على البلاغة التقليدية " إن الوصف صورة يتعرف عليها في البلاغة التقليدية بكل سرعة ويسر، إنها تجمع – عموما – ضروريا من الوصف المؤثر المتعلق بملامح الأشخاص أو أخلاقهم بوصف الأماكن"(30). لقد أدى الوصف باعتباره تقنية زمانية في رواية(متاهة الأولياء) لأدهم العبودي، عدة وظائف فنية وجمالية وتقنية نعرض إليها بالحديث والتفصيل والتمثيل في العنصر التالي:

وظائف الوصف في رواية متاهة الأولياء:

الوصف في منظور النقد القديم والحديث يؤدي وظائف فنية جمالية وأخرى تقنية يتأسس العمل السردي عليها، وهي الوظائف التي تنبثق من البعدين الزمني واللغوي، والوظائف متعددة ومختلفة لأن الوصف في حد ذاته " لا ينبني على وضع ثابت ولا يحمل هوية قارة"(31) ، إن من الوظائف المنبثقة عن البعد الزمني نجد: وظيفة توقيف أو تعطيل زمن القص، وتعطي هذه الوظيفة للراوي الحرية في الحكي والاستطراد فتحضر داخل النص معلومات جديدة يوردها السارد موشيا بها نصه، وبها أيضا يمدد في مساحة نصه، وفي هذه الوظيفة يحتل المكان حيزا روائيا أوسع وأرحب على حساب عنصر الزمن الذي يتقلص وينكمش فاسحا المجال للمكان ليحتضن أكبر قدر ممكن من الأحداث والشخصيات، فالوصف هو من بين التقنيات الزمانية الأخرى" التي تعمل على الإبطاء المفرط لحركة السرد في بنية الرواية التقليدية، إلى الحد الذي يبدو معه كأن السرد قد توقف عن التنامي، مفسحا المجال أمام الراوي بضمير الهو، كي يقدم الكثير من التفاصيل الجزئية المرتبطة بوصف الشخصيات الروائية أو المكان، على مدى صفحات وصفحات، فيما يسمى بالوقفة الوصفية"(32) ، فوظيفة الإبطاء التي يقدمها الوصف داخل المتن الروائي تفسح المجال كما أسلفنا الذكر لظهور المكان والشخصيات على سطح الأحداث، ولنا ان نستحضر من رواية (متاهة الأولياء) بعض المقاطع السردية التي نراها قد حققت هذه التقنية " هل صحيح ان من يحكم الناس لابد وأن يكون أقوى منهم؟ على الأقل ربما لكي يبسط عليهم نفوذه كيف يشاء، أبي كان هكذا، إنما لا أشبه أبي في شيء، فأنا واحد منهم، نشأت بينهم، وتربيت معهم، أنا أضعف كثيرا من أضعف رجل فيهم، أبي كان قويا، قادرا على فرض هذه القوة، أما أنا فلست في مثل قوته وجبروته، لن ألعن هذا السلسال من الإرث الذي سلم لي كرسي العمدية، ولن أعترف أنني ساخط على هذا الكرسي، أو باغض له، ففي الحقيقة أحببت كوني عمدة البلد، وراعي ناسها وكبيرهم"(33) ، ها هو ابن العمدة ناطقا بلسان السارد ينقل لنا منولوجيا ما يختمر في ذهنه وما يتقاذفه من أفكار وأحداث مضت وأخرى يعيشها وأخرى يتوجس منها خيفة لأنها مازالت في حكم الغيب في حكم المستقبل الذي لم يأته بعد. إن كانت الوظيفة الجمالية والفنية محكوم عليهما بالانتماء للممارسة الإبداعية التقليدية، فإنهما تبقيان حاضرتين بقوة ويصعب التخلص منهما أو تجاوزهما في الممارسات الإبداعية الحديثة، وبالعودة لرواية (متاهة الأولياء) نجد أن الروائي (أدهم العبودي) حافظ على هذه الوظيفة، وجسدها في روايته من خلال عدة مقاطع وصفية نسرد منها قوله مثلا : "... ويصافح الناس في حرارة أساسها إعجابه بولده الفائر كفوران حطب النار "(34) ، فهذا المقطع الوصفي جمله

الراوي بالتشبيه مدللا عليه بأداة التشبيه الكاف، ليكون التشبيه بذلك تشبيها تاما، ومن ذلك هذا الأسلوب الإنشائي الذي يكثر في الرواية والاستفهام أكثر صوره حضورا " لم تكن المرة الأولى التي تجري الدماء فيها على أرض قريتنا، إنما هل كان يدري أحد أنها لن تصبح الأخيرة؟"(35) وقوله: " فكيف تفعل سيارة ما لم تفعله تريللا؟ رغم ذلك صدق الناس ما جاء على لسان بسطاوي، لمجردّ انه بسطاوي وأنه لا يعرف للكذب طريقا، دون النظر إلى أين ذهبت جثة الشيخ أبو القمصان أو ماذا حدث لها؟ أو لماذا تركه بسطاوي ببساطة وجاء؟ على العموم ربما كان الناس في انتظار أن يظهر مرة أخرى"(36) فهذه الأسئلة المقدمة في الرواية لا ينتظر منها إجابة، فهي ليست استفهامية لمعرفة أو للحصول على معلومة، بل هي أسئلة استنكارية جاء بها الراوي في معرض حديثه على لسان (بسطاوي) عن شخصية (الشيخ أبو القمصان) صاحب الكرامات والتي منها تعدد موته وتعدد وسائل موته، فالذين يستمعون لقصص (بسطاوي) يدركون الخلل فيها لكنهم لا يستطيعوا أن يكذبوه لأنه وبكل بساطة من أولياء الله الذين يعتقدون فيهم ويرفعون عنهم كل ملامة. كما وجدنا بالرواية أساليب إنشائية طلبية أخرى تمثلت في صيغ:(الأمر والذي حضر بصوره الأربعة العادي، الفعل المضارع المقترن بلام الأمر، المصدر الذي ينوب عن فعل الأمر، اسم فعل الأمر، وفي صيغة النهي، وصيغة الاستفهام التي سبق الحديث عنها، وصيغة النداء والتي جاءت في أغلب مقاطع الرواية بالأداة (ياء) التي تكون للقريب كقول الراوي : " يا عمدة لازم أقصف رقبته ابن الكلب النجس"(37) ، وصيغة التمني) وهي أساليب إنشائية طلبية تحقق الوظيفة الجمالية للوصف، كما وظفت الرواية أساليب إنشائية غير طلبية في صيغها المختلفة والمتنوعة من مثل:(صيغة التعجب، وصيغتي المدح والذم، وصيغة القسم كما نقرأ في المقطع التالي:

" –الرحمة يا عمدة

وهو يجز على أسنانه قال:

–وهل كان لابد أن يتمرد ويعاندني؟ أنا الحكومة في هذه البلد يا ست.

–غلطة والله يا عمدة، غلطة ولن يكررها"(38) ، وصيغة الرجاء كقول الراوي في هذا المقطع السردي:

" –لقد ظلمت المرحومة

–يا ساتر يا رب

–ليتها تسامحني"(39) .

إن هذه الأساليب الإنشائية متضافرة تعمل على تحقيق الوظيفة الجمالية التي هي واحدة من وظائف الوصف، إذ نجد إلى جانبها وظيفة أخرى تتمثل في الوظيفة التفسيرية للرموز والدلالات التي تكتنزها الرواية، فالوظيفة التفسيرية من خلالها نتعرف على " الأبعاد النفسية والاجتماعية للشخصيات الروائية، مما يسهم في تفسير سلوكها ومواقفها المختلفة"(40) ، وبالعودة لنصوص الرواية نجد أمثلة كثيرة لهذه الوظيفة نذكر منها على سبيل الاستشهاد والتمثيل " من أول قريتنا لآخرها بدا سقف معلق من لمبات متعددة الألوان جاءت هدية من البندر مجاملة للعمدة، سوف ترعش عيون أهل القرية بحلول المساء، وفي الهواء تتسابق الأعيرة النارية نحو كبد السماء مجاملة كذلك، زفاف(السبع) ابن العمدة أوشك، والقرية لها أيام وأيام على أهبة الاستعداد، فمنذ زمن لم يدخل الفرح عليها، وكأن القرية قبضت على تلك الفرصة السانحة من الغبطة والوئام ولم تكن لتتركها"(41) ، من خلال هذا المقطع الذي حمل بعض الدلالات الصريحة أحيانا وغير الصريحة أحيانا أخرى يبين لنا الحالة النفسية التي عليها العمدة من فرح وسرور وفخر وهو يرى ابنه البكر(السبع) يدخل عالم الرجال ويتزوج، كما نجد فيها دلالات رامزة لتلك النشوة والسعادة التي كان عليها الابن وهو يرى كل القرية تحتفل به وتفرح لفرحه، ليس فقط لأنه ابن العمدة، وإنما لأن الفرح جافى القرية وأعطاه بظهره منذ مدة طويلة، فكان فرح(السبع) فرح القرية، ومن الدلالات الاجتماعي التي حملها النص تلك الحياة الاجتماعية الميسورة التي يحياها العمدة وأسرته، وتلك السلطة السياسية التي استمدها من سلطته الاجتماعية، حتى أن البندر الذي يمثل مؤسسة دولة تقدم له سلسلة من المصابيح(لمبات) ليزين بها القرية ويعلن مساندته ودعمه للعمدة في أفراحه وأقراحه، وهذه دلالات على أن السلطات السياسية والاجتماعية والأمنية والاقتصادية يسند بعضها بعضا، وقوتها وبقائها يكمنان في تعاضدها وتساندها، إنها دلالات رامزة على أن السلطة مهما اختلفت ومهما كان حجمها كبيرا أو صغيرا، ومهما كانت قوية أو ضعيفة، في حاجة لمثيلتها.

وبتتبع أحداث الرواية، وبتنوع مقاطعها السردية وتشابك وقفاتها الوصفية نجد كذلك هذا النص الذي يحمل وظيفة رمزية تفسيرية ودلالية " كان في زيارة لمقام سيدي(أبو الحجاج) أنتم تعرفون (بسطاوي) يعشق التمرغ في تراب الأضرحة، ودائما هاجج في البندر، يقول أنه سمع صوت الشيخ (أبو القمصان) يستنجد به، كان الصوت داخل أذنه، يستدعيه في إلحاح وفي ضعف، قادته قدماه من دون وعي، وجد الناس في الشارع تلتف حول جثمان الشيخ (أبو القمصان) المضرج في دمائه، يقول أنه رمى جسده فوق مولانا (أبو القمصان) إنما الناس فكوه من عليه بالعافية، لم يكن له يد في أن تحمل الإسعاف جثة الشيخ، ولم يكن يصدق أن

سيارة داهمته وأخرجوه من تحت عجلاتها صريعا"(42) ، إن (بسطاوي) الولي البهلول يعرف شيوخه وأمثاله من الأولياء الذين تكن لهم العامة والخاصة من المجتمع الاحترام والتقدير، احترام لمكانتهم الدينية، وتقدير لفضائل أعمالهم، ولكنه احترام ممزوج بالخوف والرهبة منهم، لما نسج حولهم من القصص والكرامات، فالدلالات الاجتماعية عميقة وبارزة في الرواية وبخاصة ما تعلق فيها بما يعرف الدين الشعبي والاجتماعي، الدين الذي تؤمن به العامة من الناس بعيدا عن التفلسف والتعقيد، وهو دين صوفي يغرس في الرواية تلك الأبعاد الرمزية التي تبحث عنها وتريد لها البروز على سطح الحياة اليومية، مظاهر اجتماعية تنقلها لنا الرواية عن تلك الحياة الاجتماعية لأهالي القرية في بعده الديني حيث الإيمان بالأولياء والتقرب إليهم بإقامة الموالد وزيارة قبورهم والاحتفاء بهم لأيام وأيام تتبعها حركية اقتصادية وسياسية وتجارية وحتى ديني، ببعث تلك الطقوس والممارسات والمعتقدات التي ألصقت بالأولياء، وفي حقيقة الأمر تحتل قضية الأولياء في الرواية ليس فقط من حيث العنوان بل من خلال الأحداث والشخصيات أغلب صفحاتها، والأولياء الذين اهتمت بهم الرواية –وقدمتهم بوصفهم دلالات ورموز اجتماعية– لم يكونوا من المسلمين فقط بل ومن المسيحيين أيضا، وبهذا خطت الرواية بتلك الرمز الدينية التي عاشت في تلك القرية من البر المصري عيشة التسامح الديني، هي إذن رسالة من الروائي للعودة لتلك الحياة الإنسانية التي لا فرقة دينية فيها، ولا اجتماعية، حياة هي نوع من الحلم الذي يستجديه الروائي من خلال أحداث روايته، حلم عاشه أجداده ببساطتهم وبفلسفتهم الخاصة بهم في الحياة، يطمح الروائي ان يتجدد في حاضره هو، أو في المستقبل من حياة الناس.

والوظيفة الأخيرة التي حققها الوصف في رواية(متاهة الأولياء) تمثلت في الوظيفة الإيهامية والتي تعرفها آمنة يوسف بقولها: " يقوم الروائي فيها بإدخال القارئ إلى عالم روايته التخييلي، موهما إياه بواقعية وحقيقة ما يصفه من شخصيات وأحداث روائية"(43) ، ومن هذا المنطلق نرى أن كل عمل إبداعي ومهما كان واقعيا أو مستمدا من الواقع فإنه لا يخلو من التخييل، هذا المسؤول عن الأدبية والشعرية، فالتخييل هو الحد الفاصل بين الإبداع الأدبي وبين الواقع المعيش، قد تكون أحداث رواية (متاهة الأولياء) فيها من الواقعية أو ما يوحي لنا بواقعيتها على الأقل من زاوية الأحداث، لكنها تتجاوز واقعها من حيث الشخصيات بتلك الأسماء والصفات، حتى وغن تشابهت مع غيرها من الواقع فالأمر يبقى في دائرة تخاطر الأفكار.

ثنائية تداخل الوصف والسرد في الرواية:

قلما يتفرد السرد بذاته بعيدا عن الوصف، فهو لصيق به في أغلب مقاطع الرواية التصاق الاسم باللقب، والزمان بالمكان، فالعلاقة بين السرد والوصف –كما سبق وأن أشرنا في فقرات من ثنايا بحثنا هذا – متينة ومتداخلة ومتشابكة،" إن الوصف موجود في كل نوع من أنواع المصنفات، ولا يكاد يوجد سبيل اجتنابه"(44) إن التداخل الحاصل بين الوصف والسرد ولد في الكثير من الدراسات النقدية والسردية إشكالية وثنائية يصعب تجاوزها لمن يبحث بخاصة في ظاهرة السرد داخل عمل روائي ما.

إن صعوبة الفصل بين الوصف والسرد كما أشار (جيرار جينيت) يعود أصلا إلى أن الحدث الذي هو في أصله حركة لا يخلو من الوصف، بينما يمكن للأشياء أن توجد دون حركة؛ أي دون حدث، ولهذا فإن " السرد يشكل التتابع الزمني للأحداث، والوصف يمثل الأشياء المتجاورة والمتقاطعة في المكان"(45) ، إن هذه المقولات توضح لنا سبل الفصل بين السرد والوصف، وهي المقولات التي سنلجأ إليها عند الاستشهاد بنصوص من الرواية لتوضيح العلاقة سواء المتداخلة أو غير المتداخلة بين الوصف والسرد.

فمن النصوص التي مزجت السرد بالوصف مع تغليب للسرد ولو بنسبة ضئيلة نقرأ هذا المقطع النصي: " كان لون السماء قرمزيا، تتدلى من منتصفها خيوط من لون برتقالي تنتهي عند قرص شمس لا يفصل بينه وبين حزام البيوت والجبال البعيدة التي تتناثر في غرب البلد وراء لسان النيل غير دقائق. ركبت بغلي وسرت به بين القباوي. البغل على راحته يتمخطر وحدود الأرض تأكل دائرة الشمس بسرعة، والناس الجالسون أمام أبواب بيوت في انتظار صوت الشيخ (عوض الله)، يرمونني بنظرات مستغربة، حتى الأطفال الواقفون في أياديهم أسياخ تنتهي في حوافها رءوس مدافع حديدية، يستديرون نحوي وفي عيونهم تساؤل، هل تمت المصالحة بينك وبين العالم الخارجي؟ لكنهم يجيبون تحيتي بابتسامة ودود، وينصرفون إلى لهوهم بغير مبالاة. كانت الأنوار والزينات تتوج المنازل الطينية، وكانت الفوانيس المعلقة تذكرني بعيد الغطاس والذي نحتفل خلاله بيوم نصنع فيه الفوانيس والشموع الضخمة ونطلق على هذا اليوم عيد الأنوار"(46) ، إننا في هذا المقطع يمكن أن نميز السرد من الوصف من خلال المسائل التالية:

أولا: السرد: ونتلمس حضوره في المقطع النصي بواسطة العنصرين الآتيين:

_ التتابع الزمني للأحداث، هذا التتابع حققته الأفعال التي غلبت على الجمل المكونة للنص، والتي منها: الأفعال الماضية الناقصة(كان)، الأفعال الماضية(ركبت، سرت)، الأفعال المضارعة(تتدلى، تنتهي، تتناثر، يتمخطر، تأكل، يرموننني، يستديرون، يجيبون، ينصرفون) وما نستنتجه من المقطع النصي القائم على السرد غلبة الأفعال المضارعة، التي تدل على الحركة والديمومة للحدث، وهذه التقنية السردية المشتغلة على أزمنة الأفعال هي التي جعلت السرد يسطو على مساحات الوصف، وبالتالي نقول : إن السرد مثله التتابع الزمني للأحداث.

_ هيمنة الحدث على الأشياء، ولأن الحدث يعني الحركة وعدم الثبات فإننا في المقطع النصي المذكور أعلاه رأينا كيف أن الأحداث تهيمن على فقرات النص مما أدخلت الراوي في سباق معها من أجل تقديم ما يمكن تقديمه منها مقللا من ظهور الأشياء والأمكنة، وما ظهر منها كان ضروريا لتطور الأحداث وتعقدها، ولتأطيرها وفق النسق العام للرواية.

ثانيا: الوصف: يشتغل أساسا على الأشياء المتجاورة والمتقاطعة في المكان المؤطر للأحداث الروائية، إن الأشياء المشكلة للوصف تتوزع على صنفين: عاقلة(الشخصيات) وغير عاقلة(الجمادات، الحيوانات)، وبما أنه لا يمكن ان تتأسس رواية في معزل عن هذين الصنفين فإننا في المقطع السردي الذي أسلفنا ذكره نقف على المكونات التالية:

_ الأشياء العاقلة: وهي التي ترتبط بالشخصيات الآدمية المقيمة لعالم الرواية ككل، ومنها المذكور باسمه صراحة كالشيخ (عوض الله)، أو ذكر بصفة من صفاته مثل (الناس، الأطفال)، أو ما ذكر بصيغة ضمير الفردي أو الجماعة المتصل بفعل مثل (ركبت، سرت، يرموننني، نطلق عليه..)، والرواية في عموم مقاطعها لا تخلو من صنف من هذه الأصناف، وما ذكرناه غنما هو عينة للتطبيق والتمثيل لا للحصر.

_ الأشياء غير العاقلة: وحضورها داخل الرواية كثيرا وكثيفا، وهي الغالبة بنسبة غير قليلة على العاقلة؛ ذلك لأن الرواية في حد ذاتها قائمة على الوصف المستدعي حضورا مباشرا للأشياء غير العاقلة، والتي منها في المقطع النصي ما دل على الجمادات من مثل: (الخيوط، البيوت، البلد، القباوي، الأسياخ، الفوانيس)،ومنها الدال على المخلوقات الحيوانية مثل: (البغل)،ومنها الدال على المخلوقات الكونية مثل (السماء، الشمس، النيل، الأرض). إن هذه النماذج من الأشياء هي التي صنعت الوصف الذي أثث الرواية وأصبغ عليها مسحة جمالية فنية، والوصف هو الذي أعطى للحدث دوره في العملية السردية، وإذا كانت العينة التي تعرضنا لها بالتحليل تعطينا ولو صورة مصغرة عن عالم رواية (متاهة الأولياء)، فإنها تبين لنا طرق وآليات الفصل بين السرد والوصف كما ذكر ذلك أهل الاختصاص ومنهم على سبيل الذكر

(جيرار جينيت) وخاصة في كتابه (خطاب الحكاية– بحث في المنهج –) والذي تحدث فيه عن الوصف وعلاقته بالسرد، ومن العناصر التي اهتمت بها الرواية وصفا دقيقا وسردا فنيا الأمكنة، حتى أننا لا نكاد نقرأ مقطع نصي منها إلا وكان للمكان حضورا مميزا، فوزعت الرواية الأمكنة ما بين ريفي ومديني، وما بين إسلامي ومسيحي، وما بين مكان للعبادة وآخر للهو، مكان عامر بأهله الأحياء وآخر عامر بساكنيه الأموات، مكان فسيح وآخر ضيق...الخ وغيرها من أنواع الأمكنة، إننا نقف على صيغ الوصف ووظائفه في رواية (متاهة الأولياء) في هذه المقاطع النصية المختارة: " كان الإسفلت من ناحية طريق شرقي، صحراوي للسيارات، طريق سريع، يحزم خصر الشارع الممتد حتى بندر الأقصر، وفي الناحية الأخرى تقع البيوت الطينية المختبئة وراء جنود النخيل، بيوت تتشابه ولون الطين المخلل بالقش، تتشابه وبناؤها المتواضع، فالبيت يتوارى داخل حقل غالبا ما يلقح ببذور ذرة، تتمطى وتفرش المدى المحيط بالعيدان الخضراء، ونوافذ من جهاته الأربع تطل على بقية البيوت"(47) ، فنلاحظ هنا الوصف للمكان المتسع/ الفضاء/ الخارجي لمحيط أحداث الرواية، حيث شيء فشيء تضيق الأمكنة والفضاءات لتدخل بنا في عمق أمكنتها المؤثثة لها.إن وصف الأمكنة في الرواية يركز غالبا على المظهر الخارجي، فقليلة هي النصوص التي دخلنا من خلالها إلى داخل أمكنة الرواية وبخاصة الضيقة كالبيوت، والحجرات، وهذا ربما مرده إلى هيمنة نظام الحكي الخارجي المنتمي للعالم الذكوري، حتى أننا لاحظنا ان أمكان العبادة من مساجد ودير للمسيحيين داخل الرواية كان الوصف الداخلي لها قصيرا ومقتضبا، وهنا تتبادر إلى أذهاننا ان العملية الحكائية الذكورية تنشد العالم الخارجي أكثر من الاهتمام بالعالم الخارجي، وهنا نوع من المطابقة للحال، فالرجال عالمهم خارجي من عمل وكسب رزق، وطلب علم...الخ، بينما يكون التركيز على العالم الداخلي للأمكنة من خصوصيات العالم الأنثوي/ النسائي/ حيث المحل مطابق لحالهن، فيشتغلن بوصف أمكنة مقامهن، ولا نعني بعالم الحكي الذكوري الراوي فقط بل قد يمس الأمر الشخصيات داخل النص، والأمر كذلك عند قولنا بعالم الحكي الأنثوي فليس شرطا أن تكون مبدعة / كاتبة/ الرواية امرأة، بل قد تكون الشخصيات نسائية هي من تتولى عملية الحكي داخل النصوص الروائية.

إن وصف الأمكنة داخل رواية (متاهة الأولياء) كان في كثير من مقاطعه النصية دقيقا ومحققا لوظيفة فنية متمثلة في تشخيص الأشياء فتحس وأنت تقرأ تلك النصوص وكأن الحياة تدب فيها، تحس وأنت تقرأ تلك الأوصاف وكأن تلك الأشياء تخلت عن عالمها المادي وحلت بالعالم الروحي، فتداخل السرد مع الوصف يجعلان من الرواية عملا أدبيا فنيا يتقدم نحو

التعقيد، وذلك التداخل بين الوصف والسرد قد يدفع بالقارئ في بعض المواقف إلى الحيرة في كيفية التفريق بينهما، وكيف يعرف داخل النص الوصف من السرد؟ جوابا عن هذا السؤال يقول (جيرار جينيت): " السرد والوصف عمليتان متماثلتان لكن موضوعهما مختلف، فالسرد يعيد التتابع الزمني للحوادث، بينما الوصف يمثل موضوعات متزامنة ومتجاورة في المكان، وربما انصرف الوصف إلى الشخصية وأبعادها الظاهرة ومشاعرها الباطنة فضلا عن المكان ومفرداته"(48) ، تلك إذن هي بعض العناصر التقنية التي من خلالها نستطيع التمييز بين الوصف والسرد، ومهما كانت تلك التقنيات فإنه حقيقة يصعب أثناء الممارسة التطبيقية والقراءة النقدية المتأنية الفصل النهائي بينهما، فالتداخل أحيانا يكون شديدا " الوصف يناقض السرد، والسرد يتعارض حتما مع الوصف. الوصف يبطئ حركة المسار السردي على الرغم من لزوم الوصف للسرد أكثر من لزوم السرد للوصف"(49) ، إن مسألة التداخل بين الوصف والسرد والتي يمكن من خلال بعض التقنيات والإجراءات العملية الفصل بينهما، لكنه يبقى دائما ملازمة الوصف للسرد ملازمة الظل لجسده.

والوصف في الرواية التي وقفنا عندها بالتحليل والدراسة لا يتجاهل الوظيفة التواصلية، وكذلك وظيفتي الانسجام والاتساق للنص، حيث تقف التداولية وراء كل ذلك وهي التي " تنطلق من هدف أساسي هو استثمار الممكن والمتاح من الآليات لتوصيل رسالة لغوية معينة وجعل ، والرواية في بعدها التداولي استغلت كل ما (50)المعنى بها يعييها ويتحرك في إطار إنجازها" هو ممكن ومتاح من التقنيات والآليات لتحقيق رسالتها ليس اللغوية فقط وإنما الجمالية كذلك، رسالة وظفت لها الرواية التناص مع النصوص الدينية من القرآن ومن الكتاب المقدس، ووظفت تقنية العتبات، والإهداء، وتقسيم الرواية إلى مقاطع معنونة بأسماء شخصيات الرواية، وبلفظة (صوت) التي تكررت في أكثر من مقطع نصي وكأنها تحولت إلى لازمة صعب على الروائي التخلص منها...الخ وغيرها من التقنيات التي وظفتها الرواية للوصول إلى مبتغاها. إننا ونحن نتتبع الوصف داخل رواية (متاهة الأولياء لأدهم العبودي) لاحظنا صعوبة الفصل النهائي بين السرد والوصف، كما لاحظنا شدة التداخل بينهما مما جعلنا لما نقدم تحليلا للوصف

لا نتحرر من السرد، ومن ملاحظاتنا كذلك أن الروائي (أدهم العبودي) مزج في وصفه بين الوصف التقليدي ونعني بذلك القائم على أساليب البلاغة القديمة، محققا الوظيفة اللغوية والتنوع الأسلوبي المنتج للجمالية الفنية، معطيا للعملية السردية تمددا واتساعا أكثر، مما يفسح المجال أمام الأمكنة والشخصيات لتحتل حيزا كبيرا في الرواية، كما أعطى الوصف في مرحلته التقليدية للراوي فسحة لالتقاط أنفاسه وتجديد أساليبه وتطوير أحداثه " ولقد نعلم أن الوصف في البلاغة

التقليدية كان يوضع في مستوى واحد مع بقية الصور الأسلوبية عبر ديباجة الكلام، لقد كان الوصف في الماضي يمتد مع الكلام، ويسعى إلى تفصيله، فيبدو وكأنه توقف للاستجمام، ، ومن الملاحظات كذلك التي سجلناها على (51)وتجديد للنفس في العمل السردي خصوصا" العملية الوصفية في الرواية أنها لم تتوقف عند المرحلة التقليدية بل دخلت مرحلة الحداثة فحقق وظائف تواصلية وأخرى تداولية، ووظائف لغوية وفنية تأخذ من المفاهيم والدلالات في الدراسات اللسانية عموما، واللسانيات الوصفية على وجه الخصوص، فالوظيفة الوصفية لا تكون ممكنة " إلا إذا تطابق النوع الاسمي الذي يتعلق به الوصف مع مفهوم اكتملت دلالته لحظة تكون ، فالوصف اقتران بالموصوف ولما نقول بالاقتران نعني التطابق بينهما من حيث (52)الجملة" الشكل والمضمون، أو على الأقل في واحدة منهما، ويأخذ منه بعض صفاته ومميزاته، يقول أبو هلال العسكري : " إن أجود الوصف ما يستوعب أكثر معاني الموصوف، حتى كأنه يصور إن الوصف الجيد على حد اعتقاد العسكري الذي يتساوي (53)الموصوف لك فتراه نصب عينيك" فيه مع موصوفه، وهو ما عبرنا عنه بالتداخل والتماهي بينهما، والذي يحدث نتيجة الدقة والأمانة في نقل الأوصاف وفي حسن اختيار الألفاظ الدالة عليها والمعبرة عنها.

الهوامش:

1- الزمخشري (الإمام جار الله): أساس البلاغة، دار صادر، بيروت لبنان، ط1، 1979م، ص: 678

2 – جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم(ابن منظور): لسان العرب، المجلد9،دار الكتب العلمية،بيروت لبنان،ط1 ،2003 مادة(وصف)

3- طه محمد الجندي: التناوب الدلالي بين صيغ الوصف العامل، دار الكتب المصرية، مصر، ط1، 1998، ص:16

4 – مصطفى صادق الرافعي: تاريخ آداب العرب،294دار الكتاب العربي، بيروت لبنان،ج3،ط2 ،1974،ص:119

5- قدامة بن جعفر: نقد الشعر، تحقيق عبد المنعم خفاجي،المكتبة الأزهرية القاهرة، مصر،ط1، 1978، ص:64

6- ابن رشيق القيرواني: العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده،تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد،ج2، دار الجيل بيروت لبنان، ط4 ، 1972 ،ص:294

– مصطفى صادق الرافعي: تاريخ آداب العرب،ج3،ص:124 7

– قدامة بن جعفر: نقد الشعر، ص:91 8

9 – غازي طليمات وعرفان الأشقر: الأدب الجاهلي قضاياه،أغراضه،أعلامه،فنونه،دار الفكر دمشق سوريا، ط1 ،1422هـ، ص:77

– ابن رشيق: العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده،ج1،ص:122 10

11– عبد الملك مرتاض: في نظرية الرواية– بحث في تقنيات السرد–،دار الغرب للنشر والتوزيع،وهران،الجزائر،ط1 ،2005م، ص:247

12– المرجع نفسه،الصفحة نفسها

13– المرجع نفسه، ص:248

14– لطيف زيتوني: معجم مصطلحات نقد الرواية، دار النهار للنشر، لبنان، ط1، 2002، ص: 171،172

15–Josette reydebove et Alain rey : Le petit Ropert dictionnaire de la langue française–paris, France, p : 686,687

16– الصادق قسومة: طرائق تحليل القصة،دار الجنوب للنشر، تونس،د ط، 2000، ص:162

17. عبد الملك مرتاض: في نظرية الرواية– بحث في تقنيات السرد–، ص:250

18 – المرجع نفسه، ص:251

19– صباح بنت علي بن عبد رب الحسن آل قاسم:أساليب الوصف والتصوير في ديوان الناس في بلادي للشاعر صلاح عبد الصبور،رسالة ماجستير، قسم اللغة العربية،كلية الآداب، جامعة الملك سعود،المملكة العربية السعودية1430هـ، ص:45

20 – آمنة يوسف: تقنيات السرد في النظرية والتطبيق، دار الحوار للنشر والتوزيع،اللاذقية، سوريا، ط1 ،1997،ص:93

21– حسن بحراوي: بنية الشكل الروائي،المركز الثقافي العربي،بيروت لبنان،ط1 ،1990، ص:179

22 – أدهم العبودي: متاهة الأولياء، ص:05

23 – المصدر نفسه، الصفحة نفسها

24– أدهم العبودي: متاهة الأولياء، ص15

25– المصدر نفسه، ص:21

26– أدهم العبودي: متاهة الأولياء،ص:40

27– المصدر نفسه،ص ص:96،97

28– المصدر نفسه،ص: 123

29– ابن رشيق القيرواني: العمدة، ص: 294

30– سيزا قاسم: بناء الرواية–دراسة مقارنة في ثلاثية نجيب محفوظ–،دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت لبنان،ط1، 1985،ص:163

31- محمد الناصر العجمي: الخطاب الوصفي في الأدب العربي القديم الشعر الجاهلي أنموذجا،ج2، مركز النشر الجامعي، تونس،ط1، د ت، ص:432

32- آمنة يوسف: تقنيات السرد، ص:93 32

33- أدهم العبودي: متاهة الأولياء، ص ص:132،131 33

34- المصدر نفسه، ص:09

35- المصدر نفسه، ص: 11

36- المصدر نفسه، ص: 19

37- أدهم العبودي: متاهة الأولياء، ص: 26

38- المصدر نفسه، ص: 118

39- المصدر نفسه، ص: 90

40- آمنة يوسف: تقنيات السرد، ص ص: 95،96

41- أدهم العبودي: متاهة الأولياء، ص:08

42- المصدر نفسه، ص: 19

43- آمنة يوسف: تقنيات السرد، ص : 96

44- الصادق قسومة: طرائق تحليل القصة، ص:167

45- حسن بحراوي: بنية الشكل الروائي، ص: 177

46- أدهم العبودي: متاهة الأولياء، ص ص:230،231

47- أدهم العبودي: متاهة الأولياء، ص:05

48- صباح بنت علي بن عبد رب الحسن آل قاسم: أساليب الوصف والتصوير في ديوان الناس في بلادي للشاعر صلاح عبد الصبور، ص:45

49- عبد الملك مرتاض: في نظرية الرواية، ص:380

50- محمد سالم محمد الأمين: الحجاج في البلاغة المعاصرة، دار الكتاب الجديد، بيروت لبنان، ط1،2008، ص:175

51- عبد الملك مرتاض: في نظرية الرواية، ص:379

52- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

53- أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري: كتاب الصناعتين(الكتابة والشعر)، تحقيق: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم،ج1،المكتبة العصرية صيدا، بيروت لبنان،د ط، 1986، ص:245